

نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

د. لطيفة طبال

أستاذ مساعدة أ بجامعة سعد دحلب البليدة

Abstract :

The socialization is an operation of instruction design for the preparation of the child then the boy and then the adult in the consolidation in the system. The social structure and the correspondence with the social measures . but which is clear marked on the education plane that there are a special way for the dealing with children.

Whereas some Arabic studies in the socialization field gesticulate to the reading of patterns of education mastery and fogleyish which seek to build devote al personalitie

ملخص

إنّ التنشئة الاجتماعية عملية تُعلَّم تهدف إلى إعداد الطفل ثم الصبي فالراشد، للاندماج في أنساق البناء الاجتماعي والتوافق مع المعايير الاجتماعية غير أن ما هو ملاحظ على مستوى التنشئة هو انه هناك اسلوب خاص في التعامل مع الأبناء.

حيث تشير بعض الدراسات العربية الجارية في ميدان التنشئة الاجتماعية إلى شيوع أنماط التربية المتسلطة المحافظة، والتي تسعى إلى بناء شخصيات مطوعة تميل إلى الإذعان والتبعية وتنتفي إمكانيةات النقد والحوار والمناقشة والإبداع والعقلانية.

تمهيد :

إنّ التنشئة الاجتماعية عملية تُعلَّم تهدف إلى إعداد الطفل ثم الصبي فالراشد، للاندماج في أنساق البناء الاجتماعي والتوافق مع المعايير الاجتماعية، والقيم السائدة، ولغة الاتصال والاتجاهات الخاصة بالأسرة التي ولد فيها، وبالجماعات التي ينضمّ إلى عضويتها، كما يتفهم الحقوق والواجبات الملزمة المتعلقة بمجموعة المراكز التي يشغلها، ويتعلم الأدوار المناسبة لكلّ مركز، كما يتفهم أدوار الآخرين الذين يتعامل معهم بالمواقف الاجتماعية المتنوعة.

المبحث الأول: التعريف اللغوي والسوسيولوجي للتنشئة

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

أولاً: التعريف اللغوي:

" تشمل جميع الجهود و النشاطات و الوسائل الجماعية و الفردية التي تعمل على تحويل الكائن العضوي عند الولادة إلى كائن اجتماعي. فهي عملية تعلم وتعليم يشارك فيها كل من الفرد والجماعة، الفرد بما هو عليه من تكوين بيولوجي ثم نفسي، و الجماعة بما توفره من ظروف اجتماعية مادية " [1ص182] ، كما يمكن القول أن عملية التنشئة الاجتماعية تتضمن اكتساب: [1ص182]

- القدرة على التكيف مع البيئة الطبيعية و الاجتماعية و الثقافية للجماعة .
- القدرة على التفاعل و بناء علاقات مع الآخرين .
- أنماط السلوك والرموز الخاصة بجماعة أو مجتمع أو حضارة، بما ينطوي هذا على اكتساب
- أنماط الفعل و الفكر والشعور، إضافة إلى اكتساب هوية.
- المعرفة والمهارات اللازمة لشغل دور أو أكثر، علماً أن هذه المعرفة والمهارات متغيرة و تختلف باختلاف الأدوار .
- السنّ ووسائل تطوير المعارف و المهارات والجوانب الثقافية الأخرى.

كما تتمّ هذه العملية من خلال تفاعل الفرد ضمن جميع مستويات العلاقات الاجتماعية، بهذا تحدث في إطار الجماعات الأولية و الثانوية و المرجعية، علماً أن أهمية كلّ هذه الجماعات تختلف باختلاف مرحلة نموّ الفرد، والواقع الاجتماعي الثقافي للجماعة أو المجتمع. فإذا كان الدور الأهم للجماعات الأولية، كالأُسرة، وجماعات اللعب والجيرة، في مراحل العمر الأولى، و في الجماعات البسيطة البدائية فإنّ الأمر قد ينتقل من حيث الأهمية، إلى الجماعات الثانوية، بعد مرحلة الطفولة المبكرة، و في المجتمعات الحديثة بشكل عام. في هذه المجتمعات تلعب الجماعات الثانوية كالمدرسة ووسائل الإعلام والأندية ومؤسسات الترويج والعمل دوراً مهماً في عملية التنشئة. هذا إضافة إلى ازدياد أهمية الجماعات المرجعية كالأحزاب والروابط الدينية والفنية [1ص182-183].

وعليه يمكن القول بأنّ المجتمع لا يشمل على مؤسسة واحدة لبناء الفرد الاجتماعي بل هناك العديد من المؤسسات التي تقوم كلّ واحدة منها بالدور المنوط بها

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

في هذه العملية. إلا أنّ الفرق بين المجتمعات البسيطة و المجتمعات المتطورة هي أنّ هذه الأخيرة تتميز بأنّ: مدة التنشئة الاجتماعية فيها تكون مديدة، ويكون عدد مؤسساتها كبيرا جدا، و تتميز فيها التنشئة الاجتماعية بدرجة عالية من التعقيد و ذلك كانعكاس لدرجة تطور المجتمع [ص248].

وبعد هذا العرض السريع للمعنى العام للتنشئة الاجتماعية وحتمية وجود مؤسسات متنوعة للقيام

بهذه العملية نحاول تقديم بعض التعاريف الخاصة بهذا المفهوم.

ثانيا: التعريف السوسولوجي للتنشئة الاجتماعية:

أ- تعريف " مادلين قرافيتس " (M . Grawitz):

التنشئة الاجتماعية هي: " السيرورة (Processus) الذي يتم من خلالها اندماج الفرد في المجتمع من خلال استنباطه للقيام والمعايير و الرموز، ومن خلال تعلّمه للثقافة في مجملها بفضل الأسرة، المدرسة، وكذلك اللغة، والمحيط... الخ". [ص355]

ب- تعريف "غي روشي" (Guy Rocher) :

تعرف " التنشئة الاجتماعية بكونها السيرورة التي تعلم الفرد من خلالها و يستتبط العناصر الاجتماعية و الثقافية لوسطه الاجتماعي، كما يقوم من خلال هذه السيرورة بإدماج هذه العناصر في بنية شخصيته تحت تأثير التجارب و الفاعلين الاجتماعيين، و من ثم تكيفه مع المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه " [ص419].

ج- تعريف " قارني و كابول" (Garnier et Kapul).

التنشئة الاجتماعية هي السيرورة التي تمكّن الفرد من تعلّم و استنباط مختلف العناصر الثقافية (كالمعايير، والقيم، والممارسات الاجتماعية و الثقافية) التي تتميز بها جماعته، و هذا ما يسمح له بتشكيل شخصيته الاجتماعية الخاصة به، و بتكيفه مع الجماعة التي يعيش ضمنها. وفضل هذه السيرورة يتم إدماج بعض الملامح الثقافية

— دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

في شخصية أفراد مجتمع ما، هذا الإدماج الذي ينتج بصفة طبيعية و لاشعورية التجانس والتوافق مع الوسط الاجتماعي[5ص116] .

د - تعريف "قراسل و آخرون " (Gresle et autres)

تدلّ التنشئة بالنسبة لهما "سيرورة التعلم و النضج التي تقود إلى التكيف والاندماج الاجتماعي للفرد ... إنها مجموعة من التفاعلات التي تبدأ منذ الولادة وتساهم في بلورة الأنا عند الطفل وتشكيله للعلاقات الاجتماعية الخاصة به، والتي تبدو عاملا جوهريا في تكوين الفرد[6ص305].

بينما "بارسونز": يعرفها بعملية تعليم تعتمد على التلقين والمحاكاة والتوحد على الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد، وعملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة في نسق الشخصية، وهي عملية مستمرة [7ص70] .

فالتنشئة هي عملية تشكيل السلوك الاجتماعي للفرد، وعملية استدخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية، وهي عملية تحويل الكائن البيولوجي إلى كائن اجتماعي على حد تعبير دوركايم.

يمتاز منطق الأسرة الجزائرية بأنها متسلطة، مركزية ومبنية على وحدة المصالح الاقتصادية وعلى التضامن والتكامل[8ص173] والعلاقات فيها بين أعضاء أو عضوات وأدوار تعرف بالأب والأم والزوج والزوجة والأخ والأخت ... الخ وبموجب هذه العضوية يصبح كل فرد في الأسرة مسؤولا ليس عن تصرفاته الشخصية فحسب، بل عن تصرفات الأفراد الآخرين[9ص176] ، والزواج في الأسرة الجزائرية هو زواج داخلي [10ص204] كما تمتاز بالنظام الأبوي بحيث تعرف نظاما صارما يمارس ربّ العائلة من خلاله سلطة مطلقة على جميع أفراد الأسرة، الذين يتوجب عليهم الخضوع له[11ص262] .

تطرقت مجموعة من الدراسات لموضوع الأسرة الجزائرية نذكر منها تلك الدراسات التي قام بها كل من "برك" (Berque) و"ديميرسمان" (Demersman) و"كميليري" (Camilleri) و "يورمانس" (Bormans) ، وهناك دراسات حديثة حول الأسرة الجزائرية وهي دراسة الباحث "عبد الغني مغربي" بعنوان "الثقافة والشخصية الجزائرية" ودراسة الباحث "مصطفى بوتفنوشت" بعنوان "الأسرة الجزائرية تطورها وخصائصها الحديثة".

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

وقد خلصت هذه الدراسات إلى تشابه الأسرة الجزائرية مع نظيراتها العربية والإسلامية في جوهرها ومبادئها وأخلاقها وتكوينها وبنيتها ووظائفها [12]، واتبعت في أحكامها المذهب المالكي لمؤسسه مالك بن أنس إلا أن المجتمع الجزائري عمد إلى إيجاد مجموعة من التقاليد والأعراف والمعايير انطلاقاً من انتمائه للإسلام والعروبة وقد توصلت الدراسات كما سبق التي تناولت دراسة الأسرة الجزائرية على أنها أسرة ذات طابع ممتد يكون النسب فيها والسكن أبويًا وسلطة الأب فيها مطلقة [13ص38].

إنّ الأسرة الجزائرية أسرة ممتدة تضم مجموعة من الأسر الزوجية يعيشون تحت سقف واحد، بحيث من عشرين إلى ستين فرداً داخل الدار الكبيرة عند الحضر أو الخيمة الكبيرة عند القبائل الرحل [13ص38].

وعقلانية الأسرة الجزائرية نابعة من "نتاج اجتماعي يعكس صورة المجتمع الذي تظهر وتتطور فيه، بحيث إذا كان هذا المجتمع يمتاز بالثبات امتازت هي الأخرى بذلك، أما إذا كانت في مجتمع متغير أو ثوري تتغير هي الأخرى وفق نمط هذا التغيير وظروفه الاجتماعية [13ص19] إنّ تماسك العائلة يتحقق بواسطة إدراج الطفل في المجتمع من خلال اعتماده على العائلة وربطه بها ودعمه إياها، ومن نتائج هذا الاعتماد أنّ الطفل ينمو وشعوره بأن مسؤوليته الأساسية هي تجاه العائلة لا تجاه المجتمع والابن المتحسس بواجبه هو الذي تدفعه تربيته إلى الشعور بأن واجبه هو من جهة التضحية في سبيل والديه وإخوته، من جهة أخرى ، بذل كل ما في وسعه من أجل أقربائه. فهو مثلاً لا يتزوج إذا كان أشقاؤه الصغار ما زالوا في المدرسة أو إذا كانت شقيقاته لم يتزوجن بعد ، أو إذا كان والده في حاجة إلى إعالة وفي إطار هذه الشروط النفسية والاقتصادية لا يبقى سوى مجال صغير للشعور بالواجب تجاه المجتمع الأكبر الذي يتصوره الفرد كفكرة مجردة لا تنطبق عليها مفهوم المسؤولية بصورة طبيعية. وبالنسبة للفرد المرتبط عائلياً بهذا الشكل لا يمثل المجتمع سوى عالم الصراع والكفاح الذي ينتزع الفرد لنفسه فيه مكاناً يدعم كيانه وكيان العائلة ورفاهيتها. والملاحظ أنه إذا ما وجدت مطالب متناقضة بين العائلة والمجتمع فمن السهل على الفرد أن يوفق بين الجهتين بالقيام بواجبه تجاه العائلة لا تجاه المجتمع.

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الأسرة وعقلانية التنشئة:

من التساؤلات التي تطرح على بساط البحث وهي هل الأسرة بأسلوبها التنشئوي تعمل على تشكيل عقل ناقد مبدع؟

أجمع كثير من الكتاب في المجتمع العربي أمثال هشام شرابي، علي زيعور، محمد جواد رضا، مصطفى صفوان، محمد حجازي... أن الأسرة وحدة اجتماعية تنتمي إلى طبقة اجتماعية ليست ذات طبيعة واحدة وتتوجه بنسق ثقافي يتقارب مع الثقافة العامة، ولكي لا يفقد خاصيته، مما يغلب على الثقافة الأسرية أن الطفل يُلعب به ولا يلعب، فهو أداة تسلية وكثيرا من الأمهات اللواتي ينجبن في سن متأخرة ينجبن بدعوى أن الطفل يسليهن في كبرهن.

إنّ هذا الطفل كائن لا يستمد قيمته من ذاته، بل من مقدّار النفع المادي أو المعنوي الذي يحمله لأهله، ومنذ البداية يوضع تحت التصرف والتدجين، وكثيرا ما ينتظر الآباء من أبنائهم تحقيق أمل الآباء المحبطة، التي لم يستطيعوا هم تحقيقها، مثل ولدي عندما يكبر يصير طبيبا، أو طيارا... ويحاولون تنشئة أطفالهم على صورتهم من حيث السلوك والمهنة وغير ذلك، مثل (ولدي كي يكبر ولي كي بياه ، راجل شاطر يجيب الخبزة من فم السبع).

تشير أغلب الدراسات العربية الجارية في ميدان التنشئة الاجتماعية إلى شيوع أنماط التربية المتسلطة المحافظة، والتي تسعى إلى بناء شخصيات مطوعة تميل إلى الإذعان والتبعية وتتقي إمكانيات النقد والحوار والمناقشة والإبداع.

فالتسلط يؤدي إلى حالة من ضعف الثقة بالنفس وفقدان القدرة على ممارسة الأدوار الإيجابية وميل كبير إلى الخضوع والاستكانة لكل أشكال السلطة ومن فقدان المبادرة الذاتية والعمل التلقائي [14ص68]

وهنا نشهد أنّ الثقافة السائدة في المجتمع تتسم بالطابع القمعي والتحكم، وحتى أنّ القهر قد أصبح سمة سياسية سلوكية في المجتمع، وحتى في نظام الحكم والإدارة، وفي الحياة الاجتماعية، الأسرة، والتربية والتعليم [15ص52].

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

بيّنت بعض الدراسات أن بنية المجتمع هي بنية أبوية (بطرياقية) يشكل منطق الوجود الاجتماعي ونسيجه، وذلك بما تتطوي عليه هذه البنية الأبوية من تسلط العقل الواحد، والرأي الواحد، في إطار المجتمع، والدولة والأسرة[16ص42] ويذهب محمد قنبر: أنّ القمع يسود ثقافتنا ويؤدي إلى مظاهر الإحساس بالدونية، وفقدان مشاعر احترام الذات فالصفح والضرب أسلوب اجتماعي شائع ومألوف في حياتنا، فالحاكم يضرب المحكوم والغني يضرب الفقير والقوي يضرب الضعيف، والكبير يضرب الصغير، والرجل يضرب المرأة، والمعلم يضرب التلميذ، وهكذا نضرب أنفسنا بأنفسنا ونستمرى الضرب فنترى عليه"[17ص136].

يعيش الطفل الجزائري عموما بين إكراهات الحب الأمومي، وبين إكراهات القسر الأبوي، فحبّ الأم لأبنائها بكل ما يتميز من حرارة عاطفية، يغلب عليه الطابع التملكي حيث تفرض الأم هيمنتها العاطفية على أطفالها، وتشلّ في نفوسهم كلّ رغبات الاستقلال وتحيطهم بعالم من الخرافات والغيبيات والمخاوف فينشأ الطفل انفعاليا خرافيا عاجزا عن التصدي للواقع من خلال الحس النقدي والتفكير العقلاني[18ص82]. يتعلّم الطفل مبكرا في الأسرة فنّ التعامل مع المحيطين به، فالمقولة " هذا ولد شاطر " يسلك راسو" يعني أنه يعرف كيف يتدبر أمره مع الآخرين، أي كيف يتعامل مع بيئته المؤلفة من والديه، وأشقائه، وأقربائه، وجيرانه.

إنّ التدريب على فنّ المسايرة، والتي تعني أن يسير المرء مع الآخر وبقوافه ويتلاءم معه، والمسايرة من حيث فنّ التلاؤم والتسوية ذات وظيفة اجتماعية تؤدي إلى خفض توتر التفاعل الاجتماعي، فالطفل إذ يتعلم كيف يتكيف مع الناس، يفعل ذلك لا ليتعلم ما يلائم من أسلوب الحديث والتصرف وحسب، بل أيضا لتكييف ذاته نفسيا مع فنّ التعامل الاجتماعي، والمسايرة تفرض موقفا ذهنيا يتهرب من المواجهة المباشرة، ومن معالجة المشكلات في جذورها.

والمسايرة تتناقض شكلا ومضمونا مع العقلانية، فالمسؤول في مصنع الذي يعرف مشاكل وخلافات عمالية يتعذر عليه التعبير عن الخلافات أو حلّها عند لقاء الناس وجها لوجه، فهو يحاول أن يتحاشاهم ويراوغهم ويعددهم دون تقديم حلول ملموسة أو

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

جزرية، لأنّ مبدأ المسايرة الذي تدرّب عليه يعيقه من الالتزام بالتسيير العلمي والتمسك بالعقلانية.

تعمل التنشئة في غالب الأحيان في المجتمع الجزائري على غرس فكرة الاتكالية التي تتحول مستقبلا إلى مبدأ يتعامل به الناس في شكل المحسوية، الزبونية، المحاباة... والتي تظهر بوضوح في بعض القيم الاجتماعية التي تشربها الأفراد، وتظهر باستمرار في سلوكهم اليومي.

وعندما نحلل مبدأ الاتكالية نجدها تأخذ شكل عدم المقدرة في مواجهة الصعاب والمشاكل وهذا يظهر في أقوال اجتماعية منها، الله غالب، لا أستطيع فعل ذلك شيء، وهي تعني الإحجام عن مواجهة الصعاب، والاستعانة بالغير دون حاجة فعلية إليه، وهو في الأساس هروب من المواجهة، ورفض للالتزام، فالفرد أو المسؤول في إدارة نجده يدافع بصورة كلامية عن العقلانية، والموضوعية، والبلاد، والوطنية، وعن الإدارة حتى آخر نقطة من دمه، ولكنه في الواقع مستعد للمساومة على ذلك من أجل الحفاظ على نفسه، وذويه وأقاربه، وعلى بعض المنافع والمناصب، مبررا ذلك الله غالب، جاءت من فوق، واش أتدير، الخ... من المبررات غير العقلانية.

وعندما نبحت في قيمة الاتكالية داخل المجتمع، نجدها من نتاج التنشئة، فالفرد إذا وجد تربية تتميز بالمنافسة فإنّه يكتسب أخلاق المنافسة، في حين أنّ البيئة التي تحدد سلفا مركز الفرد ودوره في المجتمع، تجعل الفرد ميالا إلى الخضوع والاتكالية، وأسلوب التربية عندنا يعمل على خنق الاقتحام ورد الفعل عند الطفل، حيث يعلمونه (أي الوالدان) كيف يتأدّب، وأن يجعل سلوكه مطابقا لنمط متشدد، كما يعلمونه كيف يتحاشى النزاع في تعامله مع الآخرين، وهنا يتعلم الطفل أنّ روح الخضوع تنال المكافأة، في حين روح الاقتحام ورد الفعل لا تجدي نفعاً، بمعنى أنّه يتعلم كيف يجد طريقة لطلب المساعدة واستثارة العطف بدلا من العمل بإرادته الخاصة، ويظهر هذا في موضوع السكن وتوزيعه، أو موضوع العمل والتوظيف، بحيث يعمل الطالب على إشعار صاحب الوظيفة أو المسؤول عن توزيع السكنات من خلال تعابيره وموقفه، بسخاء المعطي، وبالتالي فهو يعترف بعجزه هو، واتكاليته على الآخر، فهذه الحالة تعتبر كقيمة اجتماعية تصنف ضمن ضرورات الحياة، "الشطارة، ألعب لعبك"، وهنا

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

تستعمل التفضيل والمحسوبة كأداة عادية، وينظر إليها أنها عادية اجتماعيا وتدخل ضمن تفهمات المجتمع. فالواقع الذي نعيش فيه يعطي لنا نماذج كثيرة من هذا السلوك فمثلا الفرد في المجتمع يبحث دائما عن وسائل، وعلاقات تسهل عليه الاستحواذ أو الوصول إلى هدفه، وهذا ما نقصده بالانتكالية، ونجد هذا ضمن أسلوب التربية عند الطفل، إذا ما احتاج إلى شيء من أبيه نجده يتحاشى الاتصال به، ويلجأ إلى طرف ثالث (أمه، عمه أو خاله) فهو يحاول تلقائيا بكل ما لديه من وسائل أن يتفادى ما في المواجهة المباشرة من موقف منفعل وخنوع واستكانة، مقرون بالاحترام[19ص63].

وكثير من السلوكات التي يستعملها الفرد في سن متأخرة تعود في الأصل إلى ما تشربه من قيم وضوابط ومعايير أسرية، لأن الأسرة كانت ولا تزال الوسط الذي يتعلم الفرد في إطاره الأنماط السلوكية التي تحدد ما سوف يكتسبه فيما بعد في الجماعات الأخرى، وهذا ما أشار إليه أحمد عثمان[20ص56] حيث قال: " أن الأسرة هي الجماعة الأولية وأساسية في تشكيل طبيعة الفرد الاجتماعية، وفي تشكيل أفكاره، وتتميز هذه الجماعة بالارتباط والتعاون، ونتيجة هذا الارتباط يحدث التوحد بين أفراد الجماعة، بحيث تصبح ذات الفرد هي حياة وهدف الجماعة:.

المستقرى للواقع الذي نعيش فيه يلاحظ وجود قيما اجتماعية تقدم وسائل تغطية العجز والتهرب من المسؤولية، يظهر هذا في المواقف الشكلية التي تعمل على إخفاء الواقع وجعله أكثر واقعية وتقبلا وهي وسيلة فيها تمويه، أي أنها تجعل الواقع اللاعقلاني يبدو أكثر قبولا وعقلانية، حيث تحل الاستجابة الكلامية محل الاستجابة العملية، وتتحول الاستجابة العملية إلى نوع من التحصين النفسي، فيأخذ العجز والتهرب مظهر الحذر ويصبح في ذلك المواقف الاجتماعية كوجود وسائل أو محسوبة أو انحرافات في تسيير والتسيب في الإدارة والمؤسسات يصبح وجودا طبيعيا، حيث تتحول الاستجابة العملية إلى نوع من التحصين النفسي وإعفاء الذات من المسؤولية وهي طرق تستعمل كثيرا في التهرب وعدم الالتزام الذي نشهده في المجتمع، لأن ما جرى وما يجري لا علاقة وغير معني به والمسؤولية هي مسؤولية طرف آخر، وهذا ما يعبر به الموقف الاجتماعي،

— دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الله غالب، واش أندير، حشموني" (إذا تعلق الأمر بتوظيف أو ما شابه ذلك) أنا ما دخلني، ... وقد تعلم الفرد منذ الصغر فن التكتّم والتخفي، وهي عادة إخفاء النوايا والحذر فيما يقوله ومما يقوله للآخرين[20ص45].

من هذا القبيل فإنّ التمييز بين سلوك ظاهر وسلوك باطن يتخذ الصفة العملية، بمعنى أنّ هناك سلوكا مزدوجا مقبولا ضمنيا اجتماعيا، وهو كذلك موضوع تشجيع، فمثلا لو طلب من مسير في إدارة اقتصادية أن يتكلم في التسيير العلمي والتنظيم، والعقلانية في التوجيه، لتكلم عن النظريات في التسيير والكفاءة والمراقبة، والتنظيم... وعندما تنتظر في أسلوب تسييره في الإدارة التي يديرها نجده فاشلا على كل المستويات!! ولو طلب منه السبب لوجد مبررات كثيرة، ومخرجا من هذه الازدواجية بين ما يفكر فيه وما يسلكه في واقعه، وعندما نعود إلى الواقع المعيش نجد أنّ الطفل يتعلم باستخدام حيلة تساعد على تدبير أموره، فالقهر والتخجيل والضرب المطبقة في عموم الأساليب التربوية الوالدية والمجتمع حوّلت القيم الأساسية التي يتبناها من المجتمع إلى حوافز داخلية، فتكون لديه شعور أنّه ليس مسؤولا في كل حال، وأن لا مجال للومه على الإطلاق مثل "كن في مكاني ماذا تفعل انت؟ الله غالب"، وهذا ما هو موجود بالفعل في الأسلوب التربوي المكرس كثيرا في العائلة الجزائرية، يظهر هذا عندما تدافع الأم عن ولدها، عند الفشل الدراسي، أو العودة متأخرا إلى البيت، أو تكسير شيء ثمين في البيت، "الحق مشي عليه، ما شي هو... ولدي ما يتلامش هما إلي داروها، حصلوا في ولدي...." ومعنى هذا فهو أسوة بما يجري في الموقف التخفي... أنا غير مسؤول، المسؤول شخص آخر، وبالتالي ينظر الطفل أو المسؤول — الذي جاء في المثال السابق— إلى نفسه على أنّه مظلوم وضحية الآخرين.

والطفل لا يمكنه أن يعتبر نفسه مسؤولا بل مظلوما فكيف للشعور بالمسؤولية أن

ينمو إذا كان يشعر بالعجز شعورا مستمرا[20ص46]

والنتيجة النهائية هو أنّ الأسرة تعمل في أسلوبها التنشئي على قتل الحرية والتسلط وتلغي في ذلك العقل والنقد، وتعمل على تثبيت الطاعة والانصياع والولاء لها فقط لا غير.

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

وتلخصت التنشئة في المجتمع العربي والجزائر بالخصوص على فكرة " الضياع" أي ضياع الفرد في العائلة التي يهيمن عليها الأب والمجتمع فيقول علي زيعور: " يهمننا أن يكون الولد مطيعا، مؤدبا، متفوقا على الأقران وإلا فتكثر من الاستهزاء بشخصيته، ومقارنته مع الغير والإلحاح على فشله مما يقتل فيه الطاقات والتفتح، ويدفعه إلى السلبية وسوء التقييم للذات (بل معاقبتها أحيانا) [21ص5] والملاحظ في الواقع أنّ شخصية الأفراد في المجتمع تسيطر عليها العقلية السحرية الخرافية، ولا تسيطر عليها العقلية العلمية، فالعقلية السحرية ما تزال فعالة على نطاق شعبي واسع، ولم تنتظم العقلانية النشاطات الفردية الاجتماعية، السياسية، قطاعان سحري وعلمي، يتراكمان بتلاصق، وتتعايش بنى تقليدية مع أخرى منهجية، واقتصاد تقليدي، تابع بدائي، مع اقتصاد منظم، عقلاني، عصري[21ص6]

1- التنشئة وقيم العمل:

يحتل مفهوم العمل في البلدان المتقدمة مركز اهتمام الفرد حيث يشبع من خلاله حاجياته البيولوجية والنفسية والاجتماعية في حين مفهومه في المجتمعات الإفريقية والعربية عموما والجزائر بالخصوص يكمن في جوانبه المادية فقط، وهذا لا ينعكس سلبا على الأداء فقط وإنما يكون عائقا للتطور ذلك لأنّ الفرد لا يفكر في العمل المبدع بقدر ما يفكر في الجوانب المادية التي تعود عليه.

وقد تأكّد ذلك من خلال الدراسة الميدانية التي أجراها محمد السويدي في مجتمع تامنراست تحت عنوان (البدو الطوارق بين الثبات والتغير) أنّ الناس فيها لا يشتغلون إلاّ بقدر يكفي قوتهم لفترة زمنية محددة. فعندما يحتاجون إلى أموال يذهبون إلى محطات التنقيب على المعادن، يشتغلون فيها مدة شهر أو شهرين ثم يعودون إلى بلدتهم يقضون معظم أوقاتهم منكئين على الجدران وعند انتهاء النقود يعودون مرّة للبحث عن العمل من جديد.

وهناك آثارا للمفهوم التقليد للعمل والوقت السائدة لدى الفرد الجزائري من العامل البسيط في المستوى الأدنى من السلم التنظيمي إلى الموظف السامي في أعلى قمة الهرم وهذا ينعكس بصورة خاصة.

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

1- عدم الانضباط مع المواعيد الناجمة عن عدم إعطاء اعتبار للوقت وعدم التقيد به.

2- انخفاض الأداء في العمل الناجم عن عدم الخضوع لإجراءات العمل والتقيد بها لأسباب منها تأكيد الذات،

3- احتقار الأعمال البسيطة وأعمال البذلات الزرقاء والرمادية شعورا منهم بأنّها تنتقص من كرامة الفرد وشخصيته، وهذا ما يدفع كثيرا من الأسر بأبنائهم إلى تخصصات في الجامعة ذات الياقات البيضاء ظنا منهم أنّها تتميز بمكانة اجتماعية محترمة مقارنة بالياقات الزرقاء التي يحتقرها المجتمع وهذا مشاهد اجتماعيا

2- التنشئة ومفهوم الوقت:

إذا كان العمل هو مقياس تقدم الشعوب أو تأخرها، فإنّ مفهوم الوقت لا يقلّ أهمية عن ذلك، ويعود الفرق بين الدول المتقدمة والدول المتأخرة إلى نظرة كلّ واحد منهما إلى الوقت وكيفية استغلاله، والحرص على الانضباط في المواعيد، وفي التخطيط والتنظيم.

والحديث عن الدول المتقدمة معناه أنّنا نتكلم عن المدة الزمنية الفاصلة بينها وبين البلدان المتخلفة، ومعنى هذا الكم هو الفترة الزمنية التي تفصل بين دولة متخلفة ودولة متقدمة؟ أو سؤال آخر ما عدد السنوات التي تفصل المجتمعات العربية عن أمريكا أو كندا أو اليابان مثلا؟.

بمعنى ما هي السرعة التي يجب اللحاق عن طريقها بالدول المتطورة؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الحديث عن تحديد السرعة الفاصلة والتي لا تتحقق إلا باختصار فترة الإنتاج والخدمات وتخفيضها إلى الحد الأدنى [21ص21] ، فمثلا في مصانع رونو كانت سيارة رونو 5 تصنع في مدة 27 ساعة و50 دقيقة في سنة 1980، وحدد المسؤولون آنذاك بأنّ هذه الفترة يجب أن تتخفف إلى 14 ساعة في 1985 حتى يستطيعوا منافسة المؤسسات والبقاء في السوق [21ص22] والآن بلا شك أنّ الوقت قد اختصر أكثر.

والمقارنة بين مجتمعاتنا والمجتمعات الأوروبية وأنّ هذه الأخيرة تسعى باستمرار إلى اختصار العمليات الإنتاجية والخدماتية وتسريعها في حين نسعى نحن في تمديدنا

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

وتبطينها، وهذا يظهر تقريبا في كل مجالات الحياة الاجتماعية الاقتصادية الثقافية وحتى السياسية، فمثلا لنقارن مدة إنجاز شهادة جامعية عليا (ماجستير، دكتوراه) في المجتمع العربي عموما والجزائر خصوصا ما هي المدة المتوسطة في إنجازها؟ في حين أقصى حد لإنجاز ماجستير في جامعة أوروبية هي سنتين، ما هي المدة المثالية صناعة شاحنة (أو تركيب شاحنة في سوناكوم) وصناعة شاحنة في مصانع رونو؟.

3- التنشئة ومفهوم الولاء:

من خلال الأساليب التربوية المعهودة في الأسرة الجزائرية هو العمل على إنتاج أفراد تابعين لها وموالين لها، ويعتبر الولاء للعائلة أو العشيرة أساسي وضروري في المجتمع، وبالنسبة إلى الفرد العادي في المجتمع فإن فكرة الوطن والمجتمع مجردة ولا تتخذ معنى إلا في ارتباطها بالنماذج الأولية للقربة والدين.

وتتحد وجهة ولاء الفرد فقط في سلطة الأب، وشيخ القبيلة والزعيم الديني (وليس المجتمع أو الأمة)، فتعمل التنشئة على التقاليد وذلك بتقوية كلا من الولاء الشخصي والتبعية للذين يتربى الفرد عليهما في إطار العائلة، وتعزيزهما في الإطار الكلي للمجتمع داخل نظام الولاء وتوزيع الرضى والحماية[21ص64].

ويوفر تقليد الوساطة Nepotisme-piston لنظام الولاء مرونة وحيوية، فما كان نظام الولاء المعقد كما هو قائم اليوم ليتجذر ويترسخ ويصعب إزاحته لولا تقليد المحسوبية، فالمحسوبية والوسائط تضمن حماية الفرد والمجتمع ومصالحهما المادية، إن الوساطة في الشكل الذي تتخذه في إطار العائلة لا تعمل فحسب على تنشئة الفرد اجتماعيا ليرضى بسيادة السلطة، بل تدرب الفرد على التعامل بها، فمثلا من خلال توسط الأم (المثال أشرنا إليه سابقا) أو العم أو قريب للعائلة يكتشف الطفل أنه وعلى الرغم من عجز شخص ما إلا أنه قادر على التحرك في نظام القوى القائم، وهذا يبدو جليا في الواقع المعيشي، فحتى أبسط الأفراد وأداناهم يلقي آذانا صاغية لدى أصحاب الشأن والجاه بعد توسط الأقرباء والأصدقاء أو أصدقاء الأقرباء، أو أصدقاء الأصدقاء، وعليه فإن نظام الولاء وما يصاحبه من تلبية الاحتياجات يسهل على الفرد القناعة

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

بواقعه ويصحب من تفهيمات المجتمع، لأنّ نظام الولاء يضمن باستمرار الحماية ويشعر صاحبه بالإحساس بالرضى.

إنّ نظام الولاء يشلّ من فعالية أية بنية يهيمن عليها، ذلك أنّ هذا النظام في صورته، الامتثال قبل الأصالة والطاعة قبل الاستقلال الذاتي، فيقضي على موهبة الإبداع، وتصبح مصالح الفرد ومتطلباته الخاصة، هي الأساس وليس ما يتعلق بالمؤسسة أو المجتمع الذي ينشأ فيهما، وهذا موجود في الجامعات والمدارس والمستشفيات والمتجمعات الحرفية، والمراكز الخ، فحيث تتوفر علاقات الأبوية ممثلة في الخضوع، السيطرة، الشعور بالتفوق، الشعور بالنقص، الولاء، الامتثال يسود الولاء. فالثقافة الأبوية التقليدية وأنظمتها الخاصة بالحماية والقهر والشهامة والطاعة والتخجيل، والتعجيز أصبحت تعبر بلا عقلانية هذا النظام وبفشل أسلوبه التنشئي أمام المتغيرات العالمية الحديثة.

يعمل المجتمع الأبوي في شكله التقليدي والحديث على جعل الفرد ضائعا متى انقطع عن عائلته وعشيرته أو جماعته، لأنّ الدولة لا تستطيع أن تحل مكان البنى الاجتماعية الأولية للبشرية (العائلة- العشيرة- الجماعة). بل تعتبر الدولة قوة تدفعه إلى الاغتراب والشعور بالاضطهاد، تماما كما هو دور المجتمع المدني، فهذه غاية لا يحظى فيها بالاحترام والتقدير إلاّ الأغنياء وذوو السلطة. وفي الممارسة الفعلية فإنّ الفرد يتصرف خلقيا فقط داخل البنى الأولية (العائلة- العشيرة- الجماعة)، وفي غالب الأحيان لا يعيش ولا يعترف بالأخلاق خارج البنى الأولية، حتى أصبحت الشعارات الكثيرة تؤكد هذا الخط منها: "كن ذيب لا تأكلك الذيابة".

وعلى سبيل المثال فإنّ العائلة اليابانية التقليدية تلقن صغارها فضيلتي التضامن والطاعة، على أنّهما شرطان أساسيان للبقاء والاستمرار، تماما كما تلقن العائلة العربية صغارها، ولكن في حين أنّ اليابانيين يمارسون التضامن والطاعة خارج نطاق العائلة وفي المجتمع الواسع، في حين نجد في المجتمع العربي أنّ هاتين الفضيلتين تبقىان منحصرتين في البنى الأولية (العائلة- العشيرة- الجماعة) [19ص53]

وعلى نحو مشابه فإنّ الماوية في الصين قد أثّرت في الانتقال من الولاء العائلي إلى الولاء الجماعي، ليس عن طريق التحويل الجذري للقيم التي تولدت داخل العائلة،

- د. لطيفة طبال: نماذج من التنشئة الأسرية في الأسرة الجزائرية

ولكن عن طريق بديل حافظ على الاحترام ووفّر في الوقت نفسه مواضيع حبّ وتعلق [19ص53] ، وعلى سبيل المثال فإنّ واجب الأطفال في خدمة آبائهم تحوّل إلى واجب الأطفال في خدمة المجتمع، والمثل الأعلى الموجود في المجتمع العربي عموماً والجزائر خصوصاً هو حب الوطن فوق كل اعتبار هو شعار يمجده كل الأفراد في كل المستويات لكنها لم تترسخ على أرض الواقع ولم تضمن ترجمتها إلى مسلك عملي.

الخاتمة:

تعتبر الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأولى؛ المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي، فهي اتحاد تلقائي يتم نتيجة الاستعدادات والقدرات الكامنة في الطبيعة البشرية التي تنزع إلى الاجتماع، وهي ضرورة حتمية لبقاء الجنس البشري واستمرار الوجود الاجتماعي. وتلعب الأسرة دوراً أساسياً في سلوك الأفراد بطريقة سوية أو غير سوية، من خلال النماذج السلوكية التي تقدمها لصغارها، فأنماط السلوك والتفاعلات التي تدور داخل الأسرة هي النماذج التي تؤثر سلباً أو إيجاباً في تربية الناشئين، وتعدّ الأسرة أقوى المؤسسات الاجتماعية تأثيراً في كل مكتسبات الإنسان المادية والمعنوية.

قائمة المراجع

1. إبراهيم عثمان ، مقدمة في علم الاجتماع ، دار الشروق . عمان الأردن ، 1999
2. وطفة علي اسعد ، علم الاجتماع التربوي ، منشورات جامعة دمشق، دمشق 1993
3. Grawitz (M) , lexique des sciences sociales , Paris , Ed . Dalloz , 6 ème .
4. Guy Rocher , introduction a la sociologie generale , Tome 1 , Montreal , ed . HMH . 1968
5. Capul (J) et Garnier (O) , dictionnaire d economie et des sciences sociales , Paris , Ed .Hatier 1994.
6. Giresle (F) et autres : dictionnaire des sciences humaines :sociologie, psychologie sociales et antropologie , Paris Ed . F Nathan , 1990.
7. فرح محمد، البناء الاجتماعي للشخصية، الإسكندرية الهيئة العامة للكتاب ، 1980
8. Boudhiba (A) . A la recherche des normes perdus , Maison Parisienne de l' édition, Tunis , 1973.
9. بركات حليم ، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ديسمبر 1986، ط:3.
10. Chaulet (Claudine), La terre, les frères et l'argent ; Stratégie Familiale et production agricoles en Algérie depuis 1962. OPU ; Alger, 1987 ;tome 1 p.204

— دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

11. رسام أمل، "نحو إطار عمل نظري لدراسة المرأة في العالم العربي"، في: الدراسات الاجتماعية، عن المرأة في العالم العربي، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، اليونسكو، بيروت، 1984، ط 1.
12. MENMELHA (C) La famille Algérienne entre le droit des personnes et le droit public 11, Revue, des Sciences jur-eco – soc – N1273 , Alger .1982.
13. Boutefnouchet (Mostéfa), Systeme social et changement Social en Algérie. O P U , Alger sans date
14. كافية رمضان، "أنماط التنشئة الأسرية في المجتمع العربي"، حوليات كلية التربية في جامعة قطر، العدد السابع، 1990.
15. محمد نبيل نوفل، دراسات في الفكر التربوي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1986.
16. عبد الرزاق عوابي، "المتقف العربي المحنة الدائمة، دراسة في نشأة المتقف العربي وسوسيولوجية المستقبل العربي"، عدد 196، يوليو 1995.
17. محمد قنمر، "التربية وترقية المجتمع"، مركز ابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992
18. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، ط 5 بيروت، 1987.
19. هشام شرابي: النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992.
- 20.
21. عثمان سيد أحمد، علم النفس الاجتماعي التربوي، التطبيع الاجتماعي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1988.
22. علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية، دار الطليعة بيروت، 1977.